وإذا لم يوجد بعض الأدوية التي يعز وجودها إلا فيه فلا يمنع منه الأغنياء ومن جاء إليه فلا يمنع من شرابه ولهذا جاء إليه نور الدين وشرب من شرابه C قلت ويقول بعض الناس إنه لم تخمد منه النار منذ بني إلى زماننا هذا فا أعلم وقد بنى الخانات الكثيرة في الطرقات والأبراج ورتب الخفراء في الأماكن المخوفة وجعل فيها الحمام الهوادي التي تطلعه على الأخبار في أسرع مدة وبنى الربط والخانقات وكان يجمع الفقهاء عنده والمشايخ والصوفية ويكرمهم ويعظمهم وكان يحب الصالحين وقد نال بعض الأمراء مرة عنده من بعض الفقهاء وهو قطب الدين النيسابوري فقال له نور الدين ويحك إن كان ما تقول حقا فله من الحسنات الكثيرة الماحية لذلك ما ليس عندك مما يكفر عنه سيئات ما ذكرت إن كنت صادقا على أني وا لا أصدقك وإن عدت ذكرته أو أحدا غيره عندي بسوء لأوذينك فكف عنه ولم يذكره بعد ذلك وقد ابتنى بدمشق دارا لاستماع الحديث وإسماعه قال ابن الأثير وهو أول من بنى دار حديث وقد كان مهيبا وقورا شديد الهيبة في قلوب الأمراء لا يتجاسر أحد أن يجلس بين يديه إلا بإذنه ولم يكن أحد من الأمراء يجلس بلا إذن سوى الأمير نجم الدين أيوب وأما أسد الدين شيركوه ومجد الدين بن الداية نائب حلب وغيرهما من الأكابر فكانوا يقفون بين يديه ومع هذا كان إذا دخل أحد من الفقهاء أو الفقراء قام له ومشى خطوات وأجلسه معه على سجادته في وقار وسكون وإذا أعطى أحدا منهم شيئا مستكثرا يقول هؤلاء جند ا وبدعائهم ننصر على الأعداء ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا وقد سمع عليه جزء حديث وفيه (فخرج رسول ا (ص) متقلدا السيف) فجعل يتعجب من تغيير عادات الناس لما ثبت عنه عليه السلام وكيف يربط الأجناد والأمراء على أوساطهم ولا يفعلون كما فعل رسول ا (ص) ثم أمر الجند بأن لا يحملوا السيوف إلا متقلديها ثم خرج هو في اليوم الثاني إلى الموكب وهو متقلد السيف وجميع الجيش كذلك يريد بذلك الإقتداء برسول ا (ص) فC وقص عليه وزيره موفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسراني الشاعر أنه رأى في منامه كأنه يغسل ثياب الملك نور الدين فأمره بأن يكتب مناشير بوضع المكوس والضرائب عن البلاد وقال له هذا تأويل رؤياك وكتب إلى الناس ليكون منهم في حل مما كان أخذ منهم ويقول لهم إنما صرف ذلك في قتال أعدائكم من الكفرة والذب عن بلادكم ونسائكم وأولادكم وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه وأمر الوعاظ أن يستحلوا له من التجار وكان يقول في سجوده اللهم ارحم المكاس العشار الظالم محمود الكلب وقيل إن برهان الدين البلخي أنكر على الملك نور الدين في استعانته في حروب الكفار بأموال المكوس وقال له

مرة كيف تنصرون وفي عساكركم